دور الأدب في تأجيج الثورة الجزائرية -نماذج مختارة-

The role of literature in fueling the Algerian revolution- Selected Models-

سعدوني نادية

المركز الجامعي عبد الله مرسلي. تيبازة

حريزي فايزة

المركز الجامعي عبد الله مرسلي .تيبازة

faiza1986dzdoc@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/27 تاريخ القبول: 2021/08/28 تاريخ النشر: 2021/09/19

ملخص:

لكل أمر في هذه الحياة، شطران الأوّل منه ايجابي والثاني سلبي، وهذا ما حدث للشعب الجزائري أثناء الاستعمار الفرنسي، فمشاركته في الحرب العالمية الثانية تم تفطنه عسكريّاً وسياسياّ وحتى فكريّاً وأدبيّاً، ففهم أنّ بلده أرض مسلوبة ويجب أن تسترد بقوة السلاح والفكر، فكان بعد ذلك التخطيط المبرمج سياسياً وعسكريّاً وبالموازاة مع ذلك كان الأدب شعراً ونثراً أكبر سند لاستكمال المهمّة، فهو المحرّك والمحرض لهذا الشعب، كما أنّه الموقظ والمسمع لصوت هذا المغتصَب. وفي كنف هذه الظروف انفجرت أقلام مفكري ومبدعي الجزائر فكان البشير الابراهيمي، والشيخ مبارك بن محمد المسلي ومفدي زكريا، وغيرهم كثيرين ممن عبّر بكل ما أوتي من قوة، عن مأساة ومعاناة بلدهم، كما أنّهم كانوا لسان حال شعبهم في المحافل الدّولية، فكانت المسؤولية على هؤلاء ثقيلة، خاصة وأنّ الشّعب جُهّل من قبل فرنسا أصبح لا حيلة له إلاّ التمسّك بهذه الفئة القليلة من مثقفيهم. ولقد استخدموا لهذه المهمة أنواعاً عدّة من الفنون الأدبيّة فكان الشعر بنوعيه الكلاسيكي والحرّ، وكان المقال والقصة والخطابة حاضرين بنفس درجة قوة الشعر أي أنّ الطرق والوسائل اختلفت لكنّ الهدف واحد ووحيد، اخراج هذا المشؤوم من البلد الحبيب.

الكلمات المفتاحية : دور، الأدب ، تأجيج ، الثورة ، الجزائرية ، نماذج ،مختارة .

Abstract:
For every matter in this life, two halves, the first of which is positive and the second negative and this is what happened to the Algerian people during the French colonialism. Politically and militarily programmed planning, and in parallel with that, literature was poetry and prose, the greatest support for completing the mission, as it is the engine and instigator of this The people, as it awakened and heard the voice of this usurper. In the midst of these circumstances, the pens of Algerian thinkers and creators exploded. Al-Bashir Al-Brahimi, Sheikh Mubarak bin Muhammad Al-Musli, Mufdi Zakaria, and many others who expressed with all their strength the tragedy and suffering of their country, and they were the mouthpiece of their people in international forums, so the responsibility was on them Heavy, especially since the people were ignorant of France, they could not help but stick to this few class of their intellectuals.For this task, they used several types of literary arts, poetry was both classical and free, and the essay, story and rhetoric were present with the same degree of strength as poetry, meaning that the methods and means differed, but the goal is one and only, to get this sinister out of the beloved country.
Key words: role, literature, fueling, revolution, Algerian, models, selected

مقدمة:

الثورة كلمة يدخل في حقلها الدلالي جملة من المفردات نذكر منها: النضال، والكفاح، والجهاد، والمعارك، والاستعمار...الخ.

فإذا قلنا جهاد ونضال فسيتبادر إلى أذهاننا: السلاح، والدبابات والقتال، والصواريخ...الخ، ولكن سؤالنا، هل هذه الأجهزة والأدوات كافيّة للوصول إلى الهدف المنوط؟ أم نحتاج إلى أدوات أخرى، أكثر اختراقاً وتدميراً، وسائل تكون نتائجها أثقل وأضمن.

وإذا قلنا أدوات والوسائل، فسنسلم بأنّها كثيرة ومتنوعة كالدّعاية وخاصة الدعاية المغرضة، والإعلام والجوسسة، ولكننا اخترنا شيئاً آخراً، ألا وهو (الأدب) ومهمته في توصيل كلمة شعب مضطهد، مقهور، ومسلوب الحقوق، شعب سلبت منه الحرية

والعيشة الرغدة، وأقلّ ما يقال عنه، بدويّ، بدائي بعيد عن التحضّر والتقدم والعصر الذي نعيش فيه.

غير أنّ البطن الجزائرية الوّلادة، تمكّنت بعد مخاض عسير أن تنجب أقلاماً استطاعت أن تخرجه من قوقعة التخلف والأميّة، وتساير ركب الأدباء العرب منهم والغرب، غرضها من ذلك اسماع صوت الجزائر، في العالم العربي والغربي، وايصال صراخ المسحوقين في بلد ظلم أصحابها واغتصبت حقوقها، وتشرّد أطفالها.

لذا " يعتبر أدب النضال أثراً غنياً فعّالاً ومحركاً وعاملاً على التغيير استخدمته الأمّة الجزائرية سلاحاً لتحطيم قيود الاستعمار الغاشم وسلاحاً لتغيير الواقع المرّ "(1) وذلك عبر أصوات المثقفين والأدباء والكتاب، ولمّا كان الحبر سلاحاً فتّاكاً، فقد اتّخذ لنفسه ألواناً مختلفة، ومتباينة، فكان الشعر والمقال والقصة وفن التّرسل، وغيرها.

ونحن اليوم سنسلط الضوء على ما أنجزه هؤلاء لنظهر ما نسجه " جنود القلم " عن الثورة الكبرى، وكذا المجهودات المبذولة من أجل تفعيل دور الشعب " من خلال حرب فكرية وعسكرية يتمّ فيها تسليح الجماهير باليقظة الثورية ليكونوا دائما في مستوى الواجب "(2) هذا الواجب الذي يحتّم علينا أن ندافع بكل ما نملك عن كيان سرق، ومصير استلب لنستطيع بعد ذلك مداواة جراح أدمت الرّوح والجسد.

وخير ما نستهل به " الأمير عبد القادر المعسكري " الذي دافع عن هذه الأمّة بالنفس والقلم والفكر والسّلاح، هذا الرّجل الصنديد الذي وهب حياته من أجل قضية آمن بها فعبر عنها شعرا ونثرا ، فأما عن شعره فتمثله في ديوان" نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر " هذا الأخير الذي نشر سنة 1903 بالقاهرة، بالمقابل تجسد نثره في رسالة بعنوان " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل " و" المقراض الحّاد لقطع لسان الطاعن في الدين الإسلام من أهل الباطل والالحاد " ومن هنا يمكننا التسليم أنّ هذا الفارس المقاتل أوجد لنفسه هبة القائد المغوار الذي يتبعه النّاس بقناعة ومن دون تردّد، في خوض الحروب ومحاربة الاستعمار ليست السبيل الوحيد للنيل من هذا الظالم الدّخيل، بل لا بدّ من وجود أمر آخر يلهب الحماس، ويحي الموتى، ويقوي العزائم، فكان القلم الذي

أحسن استخدامه، وأتقن سيلانه، وارتقى عن طريقه إلى مصاف الأئمة والشّيوخ وفي هذا نجده يقول:

. الصادقون، الصابرون لدى الوغى الحاملون لكل ما لم يحمـل
. إنّ غيرهم نال اللذائذ مسرفاً هم يبتغون قراع كتب الجحفل
. لا يعرف الشكوى صغير منهم أبداً ولا البلوى، إذا ما يصطلي
. ما منهم إلاّ شجاع قارع أو بارع في كل فعل محمل
. لا يحزنون لهالك بل عندهم صوت الشهادة غبطة المتحوّل (3)

إذن فالموت عنده وعند هؤلاء فرحة وسرور، وليست مأساة وخوف وهروب ولا يشعر بذلك إلاّ من يحمل رسالة وقضية يجاهد من أجلها، وقضيتهم الجزائر الحرّة المتخلّصة من أعمال القمع الوحشية والاستفزازات اليومية، والاغتصابات الزجرية كل هذه الممارسات عبّر عنها أمير محنّك باثاً روح الحماسة والرغبة في الخلاص ،أمير استطاع برجولته وجزائريته أن يبلي البلاء الحسن، وأن يفخر بنفسه وعائلته وفروسيته، وقد نلمس ذلك من خلال هذه المقطوعة من قصيدة قالها إثر معركة وقعت في مكان يدعى " خنق النطاح " شارك فيها عبد القادر وأبلى فيها البلاء الحسن.

. ألم ترى في "خنق النطاح" نطاحنا غداة التقينا، كم شجاع لهم لوى؟
. وكم هامة، ذاك النّهار قددتها بحد حسامي، والقنا، صنعه شوى
. وأشقر تحتي، كلمته رماحهم ثمان، ولم يشك الجوى، بل ما التوى
. بيوم، قضى نحبا أخي فارتقى إلى جنان له فيها، بني الرضا أوى"(4)

وهكذا استمرّ الأمير وغيره بالنّضال والكفاح من أجل النّصر والخروج من هذا المأزق المحيّر ،مأزق جعل المجتمع الجزائري يتنفس غبارا عفنا كل يوم وليلة، غبارا مملوء بشوائب الحقد والكره إلى أن جاء اليوم الموعود، الذي انتظرته الجزائر بشوق كشوق المحبوب لمحبوبه، فكلّ شيء موجود على أرضها يطلبه وبشدة، انسانا كان أو نباتا أو حيوانا، الكل يريد أن يثور هذا الشعب ويجد لنفسه ولهم حلاً، يستطيعون بعده أن يشعروا بالأمان والطمأنينة.

ولكي يحدث كل هذا، كان لابدّ للمثقف والأديب أن يساند ويساعد في شحذ الهمّم ،وتجديد الطاقات فكان أول نشيد دعا إلى الثورة ضد العدو المحتّل هو نشيد (من جبالنا) الذي ظهر قبل اندلاع الثورة المسلّحة ببعض السنين ومطلعه:

. من جبلنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال

هذا النشيد انتشر عبر أنحاء الوطن وحفظه الشعب الجزائري كباراً وصغاراً واتخذوه رمزاً للكفاح(5).

ولم يكن (مفدي زكريا) الشّاعر الوحيد الذي سبل علمه وفكره لتنبيه المجتمع وتحريضه للم الشّمل، والوقوف على كلمة واحدة، تخرج المغبون من غبنه، فـ(محمد العيد آل خليفة) جاء بقصيدة تحت عنوان (يا قوم هبوا) دعا فيها أبناء الجزائر إلى التحرّر من مخالب الأعداء ومن الحالة البائسة التي وصل إليها هذا الشعب يقول:

الأسر طال بكم فطال عنائكم فكوا القيود وحطموا الأغلال

والشعب ضجّ من المظالم فانشدوا حرية تحميه واستقلالا

لا أمن إلاّ في ظلال مرفرف حر لنا عال ينير هلالا(6)

وهنا نجد (محمد العيد) يدعو بشدّة إلى تحطيم قيود خنقت الجزائريين وحرمتهم من أبسط حقوقهم، وتجسدت هذه الدعوة في هذه المقطوعة ذات النبرة الحادة، الهدف منها تهييج الشعب للحصول على الاستقلال في المقابل ،تطمئن الجزائر وتدعوها للسكينة التي هي قادمة لا محال وفي هذا يقول:

بلادي لا تركت إلى بغاة تشينك بالفساد و لا بغايا

أغدى للمعالي السير وامضي ولا تهني بجهدك إن تعا يا

فنحن يداك في كسب المعالي ونحن فداك من كل البلايا(7)

وهكذا استمرّت التّعبئة للنهوض من النوم العميق إلى أن انفجرت الثورة، وكان لابدّ لها دائماً من دعم القلم للسلاح حتى لا تنقطع وتصل إلى النقطة المتفق عليها هذا وقد غدا واضحاً أنّ الثورة التحريرية في الجزائر شكّلت نقلة نوعية في حياة المجتمع الجزائري، هذه الثورة التي لم تكن ذات طابع عسكري بحت كما يظن البعض بل شملت مختلف ميادين المجتمع الجزائري(8).

وأهم هذه الميادين الميدان الثقافي والأدبي، إذ ليس بإمكان الأديب الحقيقي أن يقف على الرّف بل واجبه يحتّم عليه أن يحذو حذو القافلة و يدفع الرّكب و يغذي طاقة الكفاح في نفوس المواطنين و خير دليل على ذلك ما جاء به الشّاعر (مفدي زكريا) حينما قال:" لم أعن في اللّهب المقدّس بالفن والصناعة، عنايتي بتعبئة الثورة وتصوير وجه الجزائر الحقيقية بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطولة "(9) .

أي أنّ وظيفته هنا ليست فنية ابداعية بحتة، بل أعطاها أبعادا أخرى ربما بعيدة عن الفن قريبة من الواقع. نفهم من كلّ هذا أنّ وظيفة الأدب لم تعد ترفيهية أو جمالية هدفها المتعة الذّهنية أو الروحية فقط بل مهمتها بالدرجة الأولى اجتماعية وانسانية تخدم أهدافاً سامية نبيلة(10) كتحرير فكر أو شخص أو شعب و ما الثورة الجزائرية الكبرى إلاّ أحسن بيانا، هذه الأخيرة التي ضحّت بمليون ونصف مليون شهيد، وهذا لا يعدّ الا ثمرة من ثمرات اليقظة الجزائرية وانتشار الوعي الثوري بين أفراد الشّعب، يقظة ساهم في حدوثها عدد من المناضلين بالفكر والعقل نذكر من بينهم محمد العيد آل خليفة، وعبد الكريم العقون، ومحمد ديب، هذا الأخير الذي دعا وبقوة إلى الاندماج في الثورة والدخول في المعركة بشكل كلي وحماسي، "و هكذا فقط سوف تنكشف أمامنا أثمن الصفات الإنسانية . أنّ العمل على الظفر بمستقبل بلادنا لواجب وطني مقدّس بالنسبة للكاتب كما أنّه أكيد لجودة انتاجه "(11)

ويعتبر" صالح خرفي " من أبرز الشّعراء الذين دعّموا هذا الفكر وهذه القناعة، فقد كانت له مساهمات فعّالة في النشاط الأدبي تظهر من خلال ديوان له بعنوان " أطلس المعجزات " والذي "جعله سجلاً لأحداث الثورة و مناقبها ومآثرها، فالشاعر يقتنص كل مناسبة إمّا لإثارة الحماس و التحريض على الكفاح أو الاشادة بالانتصارات و التضحيات "(12) وها هي قصيدته تشهد على هذا الدفاع عن حب عميق المستميت بالقلم و الرّوح و متأصّل للوطن الأم يقول الشاعر

" بايعت من بين الشهور " نوفمبر"

شهر المواقف والبطولة قف بنا في مسمع الدنيا وسجل للورى

فلأنت مطلع فجرنا و زناد بركان أثـرت كمينـه فتفجـرا
دوت بمطلعك الخضيب رصاصة فاهتزت البيضاء، وانتشت الذار(13)

وكتدعيم لهذا نجد " محمد صالح باوية " يقول:

دمدم الرّعد وهزّتنا الريـاح
حطمي الأغلال وامضي للسلاح
حطميها واهتفي ملء الأثير
يا طغـاة اشهدوا اليوم الأخير
حطميها لم تعودي قطعة من أدواتي أو رؤى حلم ثقيل
حطميها لمتعودي عبد خلخال وسط ودموع وعويل
لم تعودي خمرة للظلم ، أختي لم تعودي زفرة الكوخ الذليل(16)

فلكل هنا يكتسب أصل الحرية، الشّموخ، العزّة، الكرامة والكل يستعمل اللغة التي تناسبه، لغة تعبر عنه وعن آماله، ومستقبله، وأحلامه، في وطن حرّ مستقل، لغة يظهر من خلالها ما تكبده هذا الشعب من مآسي وأحزان في المقابل كانت صوت جموع الجماهير المتحدّة ضدّ العدو المعتدي، فهذا (أحمد معاش) في قصيدته "

دمعة على شهدائنا الأبطال " يصف الشجاعة التي خصّ بها أبطال الجزائر في معركة (تارشوين) من أجل استرجاع عزّة و شموخ و استقلال وطن العمالقة يقول:

. خلدي المجد واحفظي الشهداء واذكري النار والردى والدماء
. شهـداء هنا بحر دماهـا تسطر المجد وتكسوه رواء
. أنست البؤس بالنضال وأحيت أمل الشعب واستعارت رجاء
. ها هنا نستقر منا رفـات لبنينا بها سنعلي البنـاء
. ها هنا العطر من دما شهدائنا عمر السفح والربا والفضاء
. لا ترى في الوهاد و السفح إلاّ صفحات مملـوءة أنبـاء
. سطرتها أيدي الزمان حيارى فروت معجزات الحمـراء(15)

واستمرّ أدب الثورة في العطاء، والمنح بعد الاستقلال فها هو(الشيخ محمد خير الدين البسكري) في مذكراته يقول " وضعت الحرب أوزارها بعد سبع سنوات طوال، خلّفت

وراءها ما خلّفت من شهداء وجرحى ومرضى ومعوّقين، وفي الوقت نفسه، أحيت الآمال في النفوس المؤمنة بنصر الله وتأييده لعباده المؤمنين و(قل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا) الآية 81 سورة الاسراء.

وأسعدني الله الذي مدّ في عمري فشاركت أبناء أمتي أفراح انتصاراتها بتحقق الاستقلال وانبعاث آمالها لكل ما تصبو إليه بعد الاستقلال(16).

وبنفس الحماسة ،والرّغبة في غدّ أفضل، تشرق فيه الشمس بحرية ومن دون قيود تكبّل أيادي الجزائريين لتحرمهم نظافة وأناقة عقولهم، قيود تمنعهم حتى من الأشعة الذهبيّة التي تبثها شمس الجزائر طامعة في ملامسة أرواحهم وأنفسهم الزكية الطاهرة، كتب الشّاعر(محمد الهادي السنوسي) قصيدة بعنوان (الثائر) ولّد فيها كما هائلا من المشاعر والأحاسيس تجاه أبطال الجزائر الذين ضحوا بالنّفس والنفيس لتعيش الجزائر حرّة مستقلة، والملاحظ في هذه القصيدة تأججها بكم من الصور المجازية والتعابير غير المباشرة والغرض من ذلك تفخيخ المصطلح بمعاني عدة تصب جميعها في قالب واحد، فعلى سبيل المثال نجده قد شبه المجاهدين والمناضلين بالنسر، هذا الطائر المفترس المقيم في أعالي الجبال، والذي يتسم بالقوة والشراسة وكذا الانطلاق في رحاب طبيعته، كما ينطلق المكافح والمناضل من أجل استرجاع أرضه، فالسّمات المتواجدة في هذا الحيوان الشرس أسقطها على شخصية المجاهدين الذين لا يبالون بالأخطار ولا يهابون الموت لأنّ رسالتهم أقوى من أي خوف أو تردد.

كما اختار منطقتي (الأوراس والونشريس) كقطب مهم يظهر من خلاله قوة المجاهدين، وذلك من خلال النعوت والأوصاف التي خصّ بها هاتين المنطقتين لتكونا دليلا على القوة والعظمة والصمود، يقول في هذه الأبيات:

. نسر الجبال الشم في أوراسه و الورش نيس وجوه المترامي
. أعلى من الدنيا وعارض برقها من أن يرى كالمترف المتعامي
. وأجل في عين المكارم قدره من أن يضيع بحانه أو جام
. هم الآباة المجد أو رشف الردى لا عارض متن لذة الأجسام

. يا بن الجزائر يـا ربيب تراثها وتراثها من خالص الاسـلام
. لهجت بك الغازات في عرض الفل في القمة الشماء في الاجـام
. في السهل في الوادي السميق و في الضحى في الليل إذ يغشى و في الآكام
. كم ظلت تقدم و العـدو جحافـل والجو يترعد زاخرا بالسـام
. و القوة الخرقاء تعصف عصفها بوسائل التدمير و الاعـدام
. لم تخش عادية القذائف كلمـا دوت بصاعقـة من الالام
. ساجلتها الحرب الضروس فأبصرت منك العجائب في اجتثاث الهام

ثم يقول:

. وضربت أمثلة البطولة عبـرة للناس من عرب ومن أعاجم(17)

وهكذا ترى أنّ الشّعر قام بوظيفته على أحسن وجه وبأقلام مختلفة فقد حقن المجتمع بالهمة والرّغبة والعزم كما بثّ فيه روحاً جديدة يحدوها الأمل ويحفزها الانبعاث الفكري، في المقابل استفاد الشعر من المناخ الثوري، فأخذ منه الأحداث المختلفة التي كانت في كلّ مرّة موضوعاً لقصيدة ما، كما أنه صار رسالة انسانية وفكرية وسياسية ولم يعد مجرّد أبيات يهتمّ فيها صاحبها بالزّخرفة اللفّظية، فإذا أنشدنا (نشيد قسماً) فسنشعر بالوطن، الهوّية، الشخصية الجزائرية، النفسية الوطنية، العزّة، الكرامة، الاستقلال أمّا إذا قلنا (شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتمي) فسنفهم أنّ هذا الانسان يعلن أمام العلن انتماءه بنبرة يقينية يعترف من خلالها بأنّه جزائري، عربي، مسلم، وليس له علاقة بفرنسا لا في لغتها (الفرنسية) ولا في ديانتها (النصرانية) ولا في جغرافيتها فهي دولة مستقلة جغرافيّاً وسياسياً واقتصادياً وفكرياً ودينياً عن هذا الأوربي الذي حاول أن يوهم الغير أنّ الجزائر ما هي إلاّ جزء

لا يتجزأ من فرنسا، بل ومن أراد أن يعدها ولاية من ولايات فرنسا هذه الأفكار التي أرادت فرنسا أن تغرسها في روح الجزائريين حتى يقتنعوا بها، ولا يحاولوا أن يثوروا أو ينقلبوا، ولكن هيهات فما حدث كان عكس المتوقع ، فقد زاد الحقد والكره والرغبة في الثأر بل وازداد ايمانهم بفكرة (أن ما يؤخذ بالقوّة لا يسترجع إلاّ بالقوة)، وفي هذا نجد (محمد

صالح باوية) في قصيدته الحرّة (أغنية الرفاق) يعبر عن هذه المشاعر المضادة وبقوة فيقول:

. يا رفاقي، يا رفاقي، في الذرى، في السجن في القبر وفي الام جوعى قهقه القيد برجلي يا رفاقي حدقوا فالثأر يجتر ضلوعي، يا جنون الثورة الحمراء يجتر كياني ومغارات بوعي، أقسمت أمي بقيدي، بجروحي، سوف لا تمسح من عيني دموعي أقسمت أن تسمح الرشاش و المدفع و الفأس بأحقاد الجموع أن أرها ضربة عذراء تغزو بسمة السفاح في الحقل الخصيب أقسمت أن ترضع النصر و اختي في ضفاف الموت في عنف اللهيب هذه أوراس أحلام ثقال

في رؤى الجلاد في ليل الجناه
أنت أوراس أنا ملء كياني
وأنا الاعصار في عيد الطغاة(18)

" ولأنّ العروبة نمت وتصاعدت في المغرب العربي بين الحديد والنار، في معاناة لم يعشها بلد عربي في المشرق، ضرارة في المحنة، وامتداداً في الزمن، لم تكن الغزوة أرضية استيطانية فحسب بل كانت بالدرجة الأولى حضارية داهمت النفوس لتستبدل لغة بلغة، ودیناً بدين وعادات بعادات "(19)

لذلك نجده يحارب بقلمه بشراسة الأبطال الشجعان، فهذه قصيدة (صرخة جزائري) يقول فيها:

لا تلمني على الغنا والتغني
بأماني عروبتي لا تلمني
بينها فرق الزمان وبيني
لا تسلني عن العروبة فينا
إنّها تستفز ثأراً دفينا
إنّها حية ترن رنينا
تتحدى قساوة المعتدينا(20)

ولم يكن (صالح خرفي) أشد حدّة من شاعر الثورة (مفدي زكريا) في هذا المقام.
فالعروبة والاسلام هما كالنفس والدم اللذين يجريان في جسم مفدي زكريا، يستمد منهما الحياة.

ويعيش من أجل أن يثبت وجودهما في جزائر حرّة مستقلة، ولقد تولدت لدى هذا الشاعر هذه الأفكار والمعتقدات من جمل العوامل المسببة لذلك والتي تصب في مجملها في بئر واحد، آلا وهو (العروبة والاسلام) نذكر من بينها، وحدة المصير، والألم وكذا اللّغة العربية الواحدة وتشابك الأرحام.

كل هذه الأسباب وغيرها تجعل من اللّغة العربية مقومات الهوية الجزائرية يقول في ذلك مفدي زكريا:

فإنّ كلنا وطن أتى بالود منتدبا
بلاد أمها لغة إذا ما الدين كان أبا
الا تبت هناك يد تقطع جسمها إربا
وتسدل بين أعينها ونور حياتها حجبا(21)

بالإضافة إلى الشعر، كان النثر حاضراً بقوة ولكن بنمط يتناسب وأسلوب الحياة في ذلك الوقت، فكانت القصص، الواقعية التي وضعت للمجتمع على طبق أكثر بساطة وانسيابا للقراء، متماشية مع مستويات الفكر آنذاك فعالجت مشاكل الانسان البسيط وهمومه وطموحه، كما استمدّت موضوعاتها من الواقع الثوري، فالقصة وبالأخصّ القصة القصيرة فن نثري مهمته النبش في حياة البشر لاستقاء موضوعات تكون صالحة للكتابة فيها، فالقصة القصيرة حسب (عمر بن قينة) " شكل نثري، مستمدّة من حياة الناس العامة، والاجتماعية،... وسواها بكل امتداداتهما فهي حكاية متطوّرة تروي حدثاً نامياً، أو موقفاً ثابتاً أو كتصور تتحرك فيه شخصيات غالبا ما تتقدمها شخصية بارزة متميّزة، تنهض في مسار الحدث، أو في صياغة الموقف هذا و ذاك يخضعان لمعطيات ظرف عام أو خاص، أو بيئة ما، وحوافز ومثيرات لها فلعلها وهي سمات الشخصيات التي قد تأتي شخصيات متطوّرة حيادية أو منحازة، وربمّا جامدة"(22)

إذا عدنا إلى البدايات الأولى لهذا الفن في الجزائر فسنجدها في جريدة (المنتقد) للشيخ (ابن باديس) 1925 ثم ما كتب في جريدة (البصائر) التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما وجدت بعض المحاولات في جريدة (الشعلة) لأحمد رضا حوحو، غير أنّ هذه المحاولات والكتابات نشرت في هذه الجرائد، لم يكن لها وعي تاما بشروط هذا اللون الأدبي، لكن في مطلع الخمسينات لمس النقاد تطورا ملحوظا في الأداة الفنية عند بعض الكتاب أمثال (محمّد بن العابد الجلالي) 1967.1890 بقصة تحت عنوان " السعاد البتراء " والتي نشرها في ركن " معرض أراء وأفكار " بجملة الشهاب باسمه المستعار (رشيد) .

إذا تحدثنا عن فن نثري آخر، والذي كانت له مكانة كبيرة في الساحة الثقافية والفكرية الجزائرية في الفترة الممتدة ما بين الثورة التحريرية وما بعد الاستقلال، فستقول (الرواية) هذه الأخيرة التّي حسب (عمر بن قينة) بدأ التأريخ لها مع رواية " غادة أم القرى " لأحمد رضا حوحو، فهي تعدّ أوّل جهد معتبر في الفن الروائي المعمول بذلك وعي قصصي وبتلك الجديّة "(23)، وقد أخذت هذه الرواية على عاتقها التحدث عن جانب مهم من معاناة المجتمع الجزائري إبان الاستعمار والمتمثل في جانب المرأة حتى أنّه أهدى لها هذا العمل قائلاً، " إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب... من نعمة العلم... من نعمة الحرية إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود إلى المرأة الجزائرية أقدّم هذه القصة تعزية وسلوى"(24) بالإضافة إلى أحمد رضا حوحو، كان (مولود فرعون) هذا الأديب الذي أوجد لنفسه مكانة ملموسة في الساحة الجزائرية تمكن من خلالها اسماع صوته في الداخل والخارج عبر رواياته المتعدّدة بداية بـ (ابن الفقير) 1953 و" الأرض و الدّم) 1957 ثم " الدروب الصاعدة " 1969 وأخيراً رواية " الذكرى " 1972. استطاع هذا الروائي أن يعبّر عن المأساة التي يعيشها الطفل الجزائري في ظل مستعمر غاشم، كما صوّر مأساة الفلاحين الذين يكدحون في أرض هي لهم ولكنها ليست ملكهم مقابل المرض والتعب والسّقم.

اهتم (فرعون) بوصف والتعبير عن معاناة الشعب، كما اهتم كذلك بتصوير جرائم المحتّل، ودعا في المقابل من خلال رواياته إلى التمسك بالعادات والتقاليد وبالإسلام كدرب لا بديل لها ،إذن فالثورة كانت هي المحور الأساسي الذي تدور في فلك أعمال (فرعون)، ثورة ضد مستعمر أراد مسخ الجزائريين وتحويلهم إلى فرنسيين بمعنى الكلمة كل هذه المآسي والأحزان والانكسارات كانت مواضيع لروائي هذه الفترة فـ(مولود معمري) في روايته (الهضبة المنسية) عبّر عن فترة اليأس و القنوط التي عاشها الشعب الجزائري بعد الحرب العالمية الثانية، و أمّا عن أهم رائد للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، و الذي سجّل الحياة التعسفية التي تعيشها الأسرة الجزائرية سواء في المدينة أو القرية، فهو (محمد ديب)، (1920. 2003) هذا الروائي الذي أنتج أهم ثلاثية أرخ من خلالها للرواية الجزائرية، فنشر " الدار الكبيرة " سنة 1952 وتتناول حياة الناس في ظل الثورة وما تتكبده من فقر وجوع، ثم أضاف لها في 1955 الجزء الثاني من الثلاثية " الحريق "، ثم في عام 1959 أنتج رواية بعنوان " صيف إفريقي " واكب من خلالها الثورة الجزائرية التي اندلعت، وجلبت معها شخصيات خادمة للبناء الفني الروائي كشخصية المجاهد، والشهيد والثوري والخائن والمتردد، هذه الأخيرة التي اتخذها (مالك حدّاد) ركيزة له للتعبير عن جملة المشاعر والأحاسيس الجبارة تجاه ثورة التحرير، فكانت أعماله أحسن دليل على هذه الوطنية كـ" سأهبك غزالة " و " الشقاء في خطر " وغيرها من الروايات التي ربما تبدوا للقارئ أنها روايات رومانسية تتحدث عن محبوب وحبيبته مثلما في " سأهبك غزالة " التي تروي قصة حب بين سائق شاحنة وفتاة شابة، ولكن هذا الحب وهذه السعادة لا تكّتمل إلاّ في ظل الحرية والاستقلال، والتي كان يقاتل من أجلها مجاهدين شجعان.

نضيف إلى هؤلاء (كاتب ياسين) (1989.1929) في روايته (نجمة) التي حاول من خلالها كشف المستور من الأحداث والأمور المخبأة في أغوار المجتمع الجزائري، و(آسيا جبار) (2015.1936) التي اندمجت مع أحداث الثورة، وعبّرت عن المحاربين وعن مخيمات اللاجئين في روايتها (القبرات الساذجة)، فهذه الرواية من أكبر الروايات تعبيراً عن عالم المرأة الجزائرية ابان الحرب التحريرية.

نلج الآن إلى فن آخر وجد الجزائريون فيه متنفساً آخر للتعبير عن آلامهم ومآسيهم، إنّه(المسرح) هذا الأخير الذي طبع في بدايته بطابع تهذيبي تثقيفي وثوري، بصفة أكثر تحديداً، فلقد " دعت جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة المسلحة التي تشكيل فرقة فنية أسندت لها مهام تقديم عروض عن لوحات من كفاح الشعب البطل، فقامت هذه الفرق بجولات زارت خلالها الدول الشقيقة والصديقة قدمت فيها عروض حول ما يجري في الجزائر من أحداث ثوريّة، فنالت إقبالاً كبيراً، وأطلعت الرأي العام العالمي على القضية الجزائرية العادلة من أجل الحرية والكرامة "(25)

وهكذا نفهم أنّ المسرح في ذلك الوقت كان له وقعه الخاص في خدمة الثورة، بأسلوب وسلوك خاص به، غير أن مواضيعه كانت محصورة في معالجات محدّدة أغلبها تدور حول التعريف بالفكر الوطني والحضارة الاسلامية، ومن هنا نستنتج أن المسرح في الجزائر وفي تلك الفترة لم يحمل المعنى الفني الحقيقي له ،بل وجد كوسيلة من الوسائل الاعلامية المستخدمة لتفتيح العقول و تنوير الأفكار، مثله مثل (المقالات القصصية) التي كانت تعدّ أحسن فن مقروء يصل إلى الجزائري بطرق عدّة عن طريق المجلات، الجرائد، الدوريات، وقد ظهر هذا النوع من النثر في الفترة التي سبقت الثورة، عالج فيها أصحابها القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية وانتقدت العادات والتقاليد المتزمتة والتي كانت تعرقل تطور المجتمع، بالإضافة إلى هذا فقد كتب المثقفون مقالات سياسية و فكرية، الغاية منها تنوير العقول، و مساعدة الشعب على فهم وضعه و مآله، و من أهم المناضلين المستخدمين لهذا النوع من السلاح (محمد البشير الابراهيمي) هذا الأخير كان له دور بارز وفعال في تشريب المجتمع من ينبوع العلم والمعرفة، وازالة شوائب الجهل عنه والتبعية المطلقة للمستعمر الفرنسي، كما نذكر(محمد العيد آل خليفة) الذي لعب شعره دوراً كبيراً في تهيئة وتعبئة الشعب من أجل نيل حريته. نظيف إلى هذين المفكرين (محمد الهادي السنوسي وأحمد سحنون وعبد الكريم العقون والربيع أبو شامة)، كل هؤلاء تصدوا بقلبهم ووقفوا في وجه العدو بصمود وتحدي غايتهم من ذلك مسح المسخ والتشويه الذي أحدثه المستعمر في الأمة، لذا كان النضال الثقافي يسير جنباً إلى جنب والنضال

المسلح بكل ما يحمل من توعية سياسية وفكرية ودينية هدفه إعادة بناء الشخصية الجزائرية الحقة والوقوف في وجه المخططات الاستعمارية الطامحة إلى تحطيم الكيان الوطني الجزائري.

لقد حققت الثورة التحريرية تحولاً ثقافياً معتبراً وذلك بتعميق التوعية بمدى تخلفنا وبوضع معالم واضحة على طريق الخروج من التخلف(26)، وذلك عن طريق تحرير الأدب من بعض القيود مرة ، وامداده بموضوعات جديدة مرة أخرى وقد أعطى ذلك النتيجة المتوخاة، والمتمثلة في ترقية الشعب وكذا تخليصه من رواسب الماضي وتوسعت مداركه عن طريق اكتسابه لمكاسب جديدة، وبالتالي اعتبرت الثورة الجزائرية ثورة كبرى لأنّها سعت إلى أن تكون ثورة عربية شعبية، ثورة خلصت الانسان الجزائري من عبوديته وانسياقه وراء خلق آخر غريب عنه في دينه وعادته وتقاليده وحتى فكره، كما أنهّا فكّته من عقدة أسطورة تفوّق الانسان الأوربي والذي لا يمكن هزيمته أبداً.

نخلص إلى القول أنّ الشعب الجزائري بسبب جملة القيود المحكّمة حوله من كل جهة وإدراك فرنسا البغيضة بإمكانيات هذا الشعب.

الذي حاولت وبأسلوبها الرّخيص تجريده من لغته وفكره حتى تحكم السيطرة عليه، لأنّها كانت تؤمن بمقولة (شعب مثقف يعني شعب مستقل)، ورغم استخدام هذه الأخيرة كل ما لديها من طاقة لتغيير وجهة الفكر و طريقة تحليل الأمور بشكل يتناسب ومصالحها الشخصية إلاّ أنّ الله جلّ جلاله، منح هذه الأمّة عقولاً تمكنت من الانفلات من هذا الفخ لتنقذ البقيّة، وكان على رأسهم العلاّمة (عبد الحميد ابن باديس) الذي مهّد للثورة بطريقة (العقل والفكر) فقد أعاد انشاء الركيزة الفكرية التي يتكئ عليها المجتمع الجزائري، عن طريق بناء المدارس والكتاتيب لحفظ القرآن وانشاء الجمعيات، كما كان يدعو بإلحاح إلى عودة اللغة العربية وعودة عادات وتقاليد الأمّة، وكذا سعى إلى إعادة فتح كتاب الله من خلال قراءته، وحفظه وفهمه وتفسيره، لأنّه كان يعرف حقّ المعرفة، أنّه لا استقلال ولا تحرّر دون التقيّد بقواعد أساسية وسليمة والمتمثلة في الدّين واللّغة الأم، التي توصل إلى الشخصية الحقيقية للإنسان الجزائري.

ولأنّ للجزائر رجالاً، أثبتوا وجودهم منذ زمن طويل برز هذا العلامّة، الذي حارب بسلاح يكرهه المستعمر، آلا وهو التعليم فبواسطة حركة التربية والتعليم التي نهض بها في الجامع الأخضر بقسنطينة، ومدارس (جمعية التربية و التعليم الاسلامية)، و مدارس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) (27) ، فكل هذا كان من أجل إعادة جزائرية الجزائريين فحبه لوطنه واصراره على حمايته حتى من نفسه جعله يقاوم وبقوة، فقد كان يؤكد وبقوة أنّ هذا الشعب ليس فرنسياً ولا يمكنه أن يكون كذلك يقول " إنّ الشعب الجزائري ليس فرنسياً ولا يريد أنّ يكون فرنسياً وحتى لو أراد فلا يستطيع أنّ يكون فرنسياً لأنّه بعيد كل البعد عن فرنسا، بلغته وعاداته وأصوله وديانته، وإنّ التجنيس الذي هو في الحقيقة اختيار جنسية غير اسلامية للمسلمين، وتضع لهم قوانين دنيوية وبشرية "(28) وليجسّد أقواله ويتبنّها على أرض الواقع استعمل عدّة طرق، فبالإضافة إلى المدارس والكتاتيب والجمعيات، كان الشعر أهم وسيلة يزعزع بها النفوس ويحرضها على القتال والصمود أمام الظالم المعتدي يقول:

شعب الجزائري مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات، فقد كذب
أو رام إدماجاً له رام المحال عن الطلب
يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخذ الخطوب ولا تهب
وارفع منار العدل و الـ احسان واصدم من عصب(29)

فمن خلال هذه الأبيات نلمس مدى الحماس والإصرار فهو يؤكد ويلح على قومية هذا الشعب فهو (جزائري، مسلم، عربي) ولن يتنازل عن هذا ولن يرضخ أبدًا.

بالإضافة إلى الشعر، كتب مقالات عدّة توقظ الشعب وتدعوه إلى محبة الوطن بكل ما يملك من جهد، وفي هذا كتب في العدد الأول من جريدة (المنتقد) افتتاحية تحت عنوان " مبادئنا وغايتنا.وشعارتنا" يقول فيها:

" فإننا نحب الانسانية ونعتبرها كلا، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءاً، ونحب من يحب وطننا. و يخدمه و نبغض من يبغضه . ويظلمه . فلهذا فبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري . وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه(30).

خاتمة:

هذا هو المناخ الفكري والثقافي الذي هيأ للثورة، فلا يمكن أن تنفجر ثورة في يوم و ليلة، فالتحضير لها كان على قدم و ساق، و تفجيرها كان نتيجة ليقظة عمل عليها رجال الفكر والأدب فلم يكن (عبد الحميد بن باديس) المجاهد الوحيد والأوحد بل شاركه في الجهاد إخوته الذين ساندوه وأكملوا مساره من بعده فكان الشيخ (محمد البشير الابراهيمي و الشيخ مبارك بن محمد الميلي، و الشيخ أحمد توفيق المدني، و الشيخ الطيب العقبي، والشيخ التبسي) وغيرهم كثيرين لا يمكن عدّهم ولا احصاءهم في هذا المقال المحدودة صفحاته، فكان للأدب دوره في تأجيج الثورة ودفع بها من منابر الادب والثقافة.

هوامش البحث:

-(1) محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي حول حرب التحرير الوطني الجزائرية نشرت في مجلة التاريخ عدد خاص، تحت عنوان الثورة الجزائرية و صداها في العالم 1985.

-(2) أنظر: أنيسة بركات درار: محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر، التحف الوطني للمجاهد 1995 ص 63.

-(3) محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن حمدان: موسوعة الأدب العربي الجزائري عبر النصوص أو ارشاد الحائر إلى آثار، الجزء الثالث، ط1، 1997 ص501.

-(4) موسوعة الأدب العربي الجزائري، مصدر نفسه، ص 162.

-(5) أنيسة بركات: محاضرات ودراسات تاريخية أدبية حول الجزائر، المرجع السابق ،ص 66.-

-(6) العيد محمد: الديوان ، مطبعة البعث قسنطينة . سنة 1997 ص 339.

-أنيسة بركات درار: المرجع السابق ص 67.(7)-

-(8) فاطمة الزهراء زيراوي: صورة المثقف في القصة القصيرة الجزائرية المكتوبة بالعربية، منى علام عبد الله نزروني حسن قحام، فرقة بحث، معهد اللغات الأجنبية جامعة الجزائر ص 96.

-(9) زكريا مفدي: اللّهب المقدّس، ديوان ط1، بيروت 1961 ص02.

-(10) أنيسة بركات درار: المرجع السابق ص 62.

-(11) أنيسة بركات درار: نفسه ص 66.

-(12) المرجع نفسه ص 68

-(13) صالح خرفي: أطلس المعجزات، ديوان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1968 ص 169.

-(14) المرجع نفسه، ص 70.

-(15) مؤيد صالح: الثورة في الأدب الجزائري، مكتبة الشركة الجزائرية 1963، ص 116.

-(16) موسوعة الأدب العربي الجزائري، المرجع السابق ،ص 745.

-(17) أنيسة بركات درّار: أدب النضال في الجزائر من سنة 1945 حتى الاستقلال ص 106.

-(18) محمد صالح باوية: أغنيات نضالية، ديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970 ص 41.

-(19) صالح خرفي، في رحاب المغرب العربي ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان. سنة 1985، ص 204.

-(20) صالح خرفي ، أطلس المعجزات ، ط 2 (ش.و.ن.ت) الجزائر. سنة 1985، ص : 102101 .

-(21) محمد ناصر، مفدي زكريا، شاعر النضال والثورة، ط2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغاية الجزائر، سنة 1989، ص، 205

-(22) عمر بن قتيبة، في الأدب الجزائري الحديث، تاريخياً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 163.

-(23) ينظر: عمر بن قتيبة: في الأدب الجزائري الحديث: تاريخا ونوعا وقضايا وأعلاما، ص 197.

-(24) أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 نقلاً عن عمر بن قتيبة، المرجع السابق ص 197.

-(25) أنيسة بركات: محاضرات ودراسات تاريخية أدبية حول الجزائر، المرجع السابق ،ص 72.

-(26) أنيسة بركات: محاضرات ودراسات تاريخية أدبية حول الجزائر، المرجع السابق، ص 85.

-(27) تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح الاسلامي والتربية في الجزائر، ط، 1422هـ. 2001م . مزيد ومنقح، ص 30.

-(28) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس و بناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار النفائس، دار رائد 1431هـ. 2010 م ، ص :12.

-(29) المرجع نفسه، ص: 14.

-(30) د. تركي رابح: المرجع السابق ،ص: 284.